المبحث الرابع

الكشف عن وحدة نسق السورة القرآنية

إنّ النظر الشمولي إلى الهيكل العام للسورة والتمييز بين الأغراض الرئيسية والمعاني الواردة على سبيل الاستطراد والتتميم يعد الأساس في فهم المحور الأساسي للسورة؛ لأنّه يحتل في النسق القرآني مساحة كبيرة عميقة وواسعة، وإنّ تجلية بناء السورة القرآنية وإبراز اتساق عناصرها وتلاحم أجزائها ينطلق من الكشف عن مقصود السورة، أو المحور الفكري الذي تدور عليه سائر تفاريع معانيها، إذ تصب في النسق القرآني فعاليات النظم وعناصره لإنتاج الدلالة المقصودة من التعبير على مستوى المفردة والجملة والآية والسياق وفقاً لخصوبة اللغة من حيث توليد الألفاظ بتعدد الدلالة وتنوع طرق الاشتقاق، ومن حيث القدرة على التصرف في النظم على أساليب متعددة تعطي النسق امتيازه وتفوقه، ويتحقق فيها حسن الرصف وتناسق الألفاظ وبراعة الأداء وحلاوة التأتي -كما أسلفنا في دراسة ذلك- ولاشك في أنّه أمر دقيق يحتاج إلى إحالة النظر في أجزاء السورة وإمعان الفكر في تدبّر معانيها المتشعبة؛ لأنّ ملاحظة وحدة بناء موضوعات السورة القرآنية هو المصباح الذي يستضيء به للإفادة من اكتشاف الجذع المشترك التي تتفرع عنه، ويبقى أنّ التعبير عنه قد يكون عامّاً بحيث يستطيع شمول سائر تلك الموضوعات، وقد يكتفي بعرض تلك القضايا وبيان التحامها، وظاهرة التناسق الموضوعي خصيصة من خصائص السور القرآنية، وما من سورة إلاّ ولها هدف محوري تتجه إليه جميع موضوعاتها، وأنّ علمي (المناسبات) و(مقاصد السور) اللذان أبدعهما أئمة التفسير هما الأساس الذي استلهم

الغرض المحوري للسورة ومقصدها العام[1].

وإذا تجاوزنا مجال اللفظة والتركيب في البنية الداخلية للآية الكريمة إلى ساحة المناسبات والعلاقات التعبيرية والدلالية بين الآيات وجدنا ظواهر أخرى تكتنف هذه العلاقات والمناسبات تلفت النظر إليها، يمكن بوساطتها الكشف عن وحدة نسق السورة القرآنية، وإدراج ذلك في النقاط الآتية:

١- فواتح السور وخواتمها، يمكن التماس ما تضمنته فواتح السور وخواتمها من معانٍ ودلالات ملفتة للنظر، وذلك بتتبع جميع آياتها، إمّا لتهيّئ السامع أو القارئ المتدبّر لتلقّي التوجيهات التالية، والتي تشير إلى أهم القضايا التي ستعالجها الآيات بعد ذلك، أو استيعاب العبرة والنتيجة من خلال خاتمتها أو لتعود للتذكير بإحدى تلك القضايا وتأكيدها وترسيخها، أو توجيه الاهتمام لاستقبال السورة التي تليها بما ترشحه من إيحاءات في ذلك[2].

فهناك مناسبة بين مطلع السورة والموضوع الذي يغلب على آياتها وبين ختامها، لذا تستثمر في كشف الغرض المحوري والمقصود الذي تلتقي فيه جميع مواضيع السورة، فتتكون السورة من ديباجة وموضوع وخاتمة، فتوضع الآيات الافتتاحية لمعالجة الموضوع بخطوطه الرئيسية، ثمّ يتبع ذلك التدرج في

---

(١) ينظر: منهاج البلغاء: ٣٨٩؛ وينظر: دراسات في أساليب القرآن: ٦٢؛ وينظر: النسق القرآني، دراسة أسلوبية: ٣٨٦، ٤٨٣؛ وينظر: وحدة النسق في السورة القرآنية: ١٩٥، ٢٠٦.

(٢) النسق القرآني، دراسة أسلوبية: ٣٣٦؛ وينظر: وحدة النسق في السورة القرآنية: ١٩٥.

عرض المرفوع بنظام دون تداخل أجزاءه، وإنما يحتل كلّ جزء مكانه المناسب له، وأخيراً تأتي الخاتمة التي تقابل الديباجة[1].

ومن أمثلة فواتح السور الحروف المقطعة وهي تعد كدلالة فنية أو موضوعية، و لم يعهد أنْ جاء في كتاب سماوي هذه الحروف[2]، وهذه الحروف إمّا أن تعد آيات في أوائل السور مثل: الم، المص، كهيعص، وأمثالها، وتكتب في المصحف الشريف على صورة الحرف لا على صورة اسمه، وهذه الحروف شملت صفات حروف اللغة العربية جميعها، وغالباً ما تنطوي عليه معاني ودلالات تلك السور التي تبدأ بهذه الحروف أنْ تتحدث عن مبدأ الخلق، والوسط الذي هو المعاش من التشريع بالأوامر والنواهي، والنهاية التي هي المعاد[3].

أو لا تُعدّ آيات في أوائل السور التي افتتحتها مثل: الر، المر، طس، ق، ن، وهذا الاعتبار علم توقيفي أشار إليه معظم العلماء والمفسرين[4]، وقد لوحظ في السورة التي بدأت بحرف واحد أنّ هذه السورة مبنيّة على الكلمات التي تحمل هذا الحرف، مثل سورة ق، فالسورة مبنيّة على الكلمات ذوات القاف، مثل: القرآن، الخلق، القول، قال، القريب، الرقيب وغيرها كثير، وأنّ معاني السورة مناسبة لما في حرف القاف من الشدة والجهد والقلقلة، ومثل سورة ص، فالخصومات متعددة في هذه السورة كخصومة الكفار مع النبي، واختصام الخصمين، وتخاصم أهل النار، واختصام الملائكة في الملأ الأعلى في

---

(١) ينظر: مدخل إلى القرآن الكريم: ١١٩.

(٢) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٣٢/١.

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢٢١/١؛ وينظر: الكشاف، للزمخشري: ٦٩/١، ٧٣؛ وينظر: النسق القرآني: ٣٣٧.

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢٢٠/١.

العلم، وتخاصم إبليس في أمر السجود[1].

أمّا فواتح السور الأخرى التي جاءت آيها عادية، فقد جاءت لأغراض ودلالات مرتبطة بخصائص النص القرآني التعبيرية وأهدافه الموضوعية أو المقصود العام للسورة، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] فارتبط تحميد الله تعالى بغرض موضوعات الآيات التي تتلوها؛ فتحميد الله تعالى لرحمته وتملّكه يوم الدين، وتحميده لعبادته والاستعانة به والهداية لطريق الإسلام، وإبعادنا عن المغضوب عليهم وهم اليهود، والضالين وهم النصارى كما ذكر ذلك المفسرون.

ومن أمثلة دلالة فواتح السورة وخواتمها على مقصودها وغرضها الأساس سورة الرعد، ففي الآية الأولى منها يوجد موضوع السورة، قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[3]، وتتضمن هذه الآية الكلام على عناصر ثلاثة، وهي: (١) رسالة الحق (٢) رسول الصدق (٣) مُرسل إليهم أكثرهم لا يؤمنون، أمّا الكلام على الرسالة فيستدعي إقامة الدليل على أسسها وإثباتها، وجاءت مجموعة من الآيات لإقامة الدليل على وجود الله ﷻ وعظيم صفاته لإثبات صدق ما أنزله، وأمّا الكلام على الرسول والمرسل إليهم فيستدعي بيان مال الصراع الذي تم بينهم، وأتت الآيات لعرض الحوار بينهم وحججهم، وكيف عالج الرسول ﷺ إصلاحهم ضمن التعليمات والبيانات الربّانية، وكما يتضمن

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١/٣١؛ وينظر: النسق القرآني: ٣٣٧.
(٢) سورة الفاتحة: ٢.
(٣) سورة الرعد: ١.

عرض تربية الرسول أمام ما لاقى من المكذبين[1].

وسورة يونس؛ إذ يظهر الترابط والصلة في سياق السورة وبين مطلعها وختامها في مطلعها قال تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٞ مُّبِينٌ﴾[2]، ويجيء في الختام قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾[3]، فالحديث عن قضية الوحي هو المطلع وهو الختام، كما وأنه هو الموضوع المتصل والملتحم بين المطلع والختام[4]. وهكذا الترابط ووحدة الموضوع بين المطلع والختام والمحور الأساس للسورة والعلاقات المتصلة بينها يسير في سور القرآن كله، بسحب موضوع السورة الخاص بها، فضلاً عن الموضوع العام للقرآن الكريم (الله) الذي هو موضوع توحيد وتصديق للكتب السماوية السابقة التي نزلت لتوحد الله تعالى، وهداية البشرية والتشريع لها لتنظيم سلوكياتها وتربيتها، وختاماً بالوعد الذي هو مناط الآخرة.

٢- تقسيم السورة إلى أقسام بحسب مضمونها من المعاني الجزئية والمحاور الصغرى التي تناولتها، فالسورة تتكون من جملة من الآيات وهي أحد عناصر نسق النظم، ومن ظواهر النص القرآني، وأنها جزء تعبيري يمثل الوحدة الأساسية في النص القرآني عموماً، وهي سوى المفصل متعدد

---

(١) ينظر: قواعد التدبّر الأمثل: ٣٢.

(٢) سورة يونس: ١-٢.

(٣) سورة يونس: ١٠٩.

(٤) ينظر: في ظلال القرآن: ١٧٤٥/٣؛ وينظر: الأساس في التفسير: ٦٠٠٩/١٠.

الموضوعات، ويتحتم على المتدبّر ألاّ يشتت نظره مع تفاريعها وتشعباتها، بل عليه أن يقسم السورة إلى مقاطع بحيث يكون كل مقطع متكوناً من مجموعة من الآيات التي تدور حول موضوع ومقصد واحد، ثم يحاول البحث عن المواضيع التي تشمل جملة من تلك المقاطع، مميزاً بين ما هو محوري فيها وما هو وارد على سبيل التكميل والتتمة والتفريع، لتتحصل لديه أقسام السورة التي تمثل القضايا الكبرى التي تعالجها، ثم يحاول اقتناص الرابط المعنوي الدقيق الذي يجمع بين تلك الأقسام والذي يكون بمثابة الجذع الذي تتفرع عنه سائر معاني آيات السورة[1].

وتتعاون الآيات داخل كل قسم بالتعبير عن جزء من الموضوع، وهذا التعبير هو مجموعة الفعاليات اللغوية والعلاقات الإيحائية والإثارة الذهنية والوجدانية التي يحققها النص أو القسم من خلال وحداته الأساسية وتتبع هذه الفعاليات يكشف عن طبيعة نسق النظم في القرآن الكريم[2].

فإذا تدبّرنا كل قسم أو نص تبيّن أنه بني من المقاصد الكلية على أسس وأصول، وأقيم على كل أصل منها شعب وفصول، وأنّ الصلة بين أقسام السورة لا يعني اتحادها أو تماثلها أو ما إلى ذلك، بل إنّ القرآن سلك في الانتقال من معنى إلى آخر مسالك شتى، يجعلها تتعاون في أحكامها يسوق بعضها إلى بعض مساق التنظير أو التفريع أو الاستشهاد أو الاستنباط أو التكميل أو الاحتراس وإلى غير ذلك[3].

---

(١) ينظر: النسق القرآني: ٣١٤، ٣٤٢؛ وينظر: وحدة النسق في السورة القرآنية: ١٩٨.

(٢) ينظر: النسق القرآني: ٢٦٧، ٣١٩.

(٣) ينظر: النبأ العظيم: ١٣١.

ومثال ذلك سورة البقرة تتألف من مقدمة وثلاثة أقسام وخاتمة، فتكون المقدمة من الآيات العشرين الأولى، وفيها أقسام الناس بحسب التقسيم الربّاني الإسلامي: متقين وكافرين ومنافقين، وصفة كل منهم، أمّا القسم الأول فمن الآية (٢١) إلى نهاية الآية (١٦٧)، وفيها دعوة عامة إلى الناس جميعاً وتعليمهم الطريق الموصل إلى تقوى الله، ويتركوا كل ما ينافي ذلك[١].

وأمّا القسم الثاني فمن الآية (١٦٨) إلى نهاية الآية (٢٠٧)، وهو استمرار القسم الأول في تربية الإنسان وتعليمه كيفية التقوى، ففيه دلالة على التقوى وتفصيلاً في شأنها وتبياناً لأركانها وشروطها وما يدخل فيها، وموقف الناس منها وغير ذلك من معان.

أمّا القسم الثالث فمن الآية (٢٠٨) إلى نهاية الآية (٢٨٤) وفيه دعوة إلى الدخول في الإسلام كله، وتبيان لكثير من شرائع الإسلام، وتبيان ما يلزم لإقامة الإسلام كله، وفيه التوجيهات الرئيسية في قضايا المال وملامح النظام الاقتصادي في الإسلام، النظام القائم على الصدقات، والنظام الربوي، والنظام القائم على التعامل المنضبط مع تقديم المالكية لله تعالى.

وتأتي الخاتمة التي يدخل فيها هذا كله، إذ مرجعه إلى الإيمان والسمع والطاعة والتوبة من التقصير، ومرجعه ما مرّ يعود إلى التكليف المستطاع للإنسان الذي يفضي به إلى الجزاء والعقاب، ومقصوده الأساس ومحور الرئيسي هو العبودية الكاملة لله تعالى وأنّ التوفيق منه تعالى، وهذا ما عليه أصل الدعوات[٢].

---

(١) ينظر: الأساس في التفسير: ٦٧٣/١.

(٢) ينظر: الأساس في التفسير: ٦٧٤/١.

وسورة الرحمن مثال على ذلك أيضاً، إذ تنقسم إلى أقسام ثلاثة كل قسم منها يختص بمقصد، ترتبط تلك المقاصد بمحور أساس يجمعها، فالقسم الأول استهل بنعمة الرحمن وفضله بخلق الإنسان وتعليمه القرآن وبيانه، وأنَّه خالق كله شيء ومالكه، فعدد في هذا القسم ما في الكون والفلك والبحار مما خلق، وعجز الجن والإنس عن الخلاص من غضبه إذا أراد إهلاكهم.

والقسم الثاني ذكر حال أهل النار، والقسم الثالث ذكر حال أهل الجنة والنعيم الذي فيها والمفاز، وكثر تعداد نعمها للترغيب فيها بطاعة الله تعالى، وختمها بالتسبيح والتبجيل والإكرام، وهو مرتبط بمستهل ومطلع السورة، أمّا المحور والمقصود الأساس هو آلاء الله تعالى ونعمه التي لا حصر لها ولا عد، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾[1].

٣- معرفة الفترة الزمنية التي نزلت فيها معظم آيات السورة، والطابع الذي يغلب عليها أهو المكي أو المدني، وتتبع أسباب نزول جملة من آياتها، ومن خلال ذلك يمكن التعرف على هدف السورة العام أو أغراضها الكبرى التي تدور عليها، فمن المعلوم أنّ السور المكية عرضت أسس العقيدة الإسلامية، وقد توخّت تقرير أربع قضايا كبرى: الإيمان بالله وحده، والإيمان بالآخرة، والإيمان بالرسل والرسالات السماوية، والدعوة إلى أمهات الأخلاق، سواء اجتمعت تلك الأسس أو انفردت في السورة الواحدة[2].

---

(١) سورة النحل: ١٨.

(٢) ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي: ٤٢؛ وينظر: المنهج السياقي وأثره في تطوير دراسات التفسير: ٤٥، ٤٧؛ وينظر: وحدة النسق للسورة القرآنية: ٢٠٠، ٢٠١.

أمّا السور المدنية فهي تتوخى بناء المجتمع الإسلامي على أسس الإيمان والطاعة وفيها تفصيل للتشريع في شؤون الحياة كافة، وحماية الأمة من الأخطار الداخلية والخارجية، والتحذير من اليهود والمنافقين وفضح أضغانهم، ومحاورة أهل الكتاب وإقامة الحُجّة عليهم[1].

والفائدة من معرفة الفترة الزمنية هو الاستدلال على مقصود السورة من خلال معرفة زمن نزولها وملاحظة القسم الذي تنتمي إليه من السورة في مجمل آياتها، فالوسط التعبيري الذي يستمد مقصود القسم دلالته في ثناياه، وهذا يعيننا على فهم استعمال الفعل ودلالته على غير زمنه الذي خص به وضعاً.

والفعل في السياق (ماضياً ومضارعاً وأمراً) يمنحه السياق دلالته والذي يخضع لاعتبارات أسلوبية، وكما أسلفنا أنّ الآيات المدنية والمكية لكل منها أسلوبها الخاص. فالشاطبي اعتبر سورة (المؤمنين) مكية، بعد استقراءه واستعراض جملة من آياتها توصل إلى أنّ القضية الغالبة على نسقها هي ذكر إنكار الكفار للنبوة، كما أنّه ذكر سورة الأنعام نزلت في الفترة المكية مبيّنة لقواعد العقائد وأصول الدين[2].

ولا يلزم أن يكون الغرض المحوري للسورة موافقاً تماماً لمواضيع القسم الذي يندرج فيه من مكي أو مدني فقد يكون مقصود السورة عامّاً يشمل هذه الأغراض المتفرعة التي تغلب على أقسامها، فإنّ سورة آل عمران مدنية ومع ذلك أنّ مقصدها العام هو ترسيخ فكر التوحيد[3].

---

(١) ينظر: مباحث في التفسير الموضوعي: ٤٣.

(٢) ينظر: الموافقات: ٣/٣٠٤.

(٣) ينظر: مصاعد النظر: ٢/٦٧، ٦٨؛ وينظر: في ضلال القرآن: ١/٣٥٧.

٤- الاستئناس باسم السورة أو أسمائها التي جاءت في حديث النبي ﷺ يشكّل اسم السورة جزءاً من موضوعها، أو يكون له رابط مناسبة أو علاقة بينه وبين السورة من خلال تطور هذا الموضوع أو توالي وحداته الجزئية من آية إلى أخرى إلى نهاية السورة.

ومثاله سورة آل عمران فهناك رابط بين أسمها ومقصودها، فمقصود السورة التوحيد، و لم يعرب عن هذا المقصود في السورة، ولكن ما أعرب عنه ما ساقه سبحانه وتعالى فيها من أخبار آل عمران، بما فيها من الأدلة على القدرة التامة الموجبة للتوحيد، والذي ليس في درج الإيمان أعلى منه[1]. فالمناسبة هي توحيد آل عمران لله تعالى ومقصود السورة والذي هو التوحيد المطلق لله تعالى.

ومن ذلك أيضاً الاستئناس باسم سورة النساء، ولما كان مقصودها الاجتماع على ما دعت إليه سورة البقرة وآل عمران من التوحيد، وكان السبب الأعظم في الاجتماع والتواصل عادة الأرحام العاطفة التي مدارها النساء، والعدل الذي هو لباب التوحيد[2]، فضلاً عن ورود كثير من أحكام النساء فيها. وهذا المسلك طريق بديع في استكشاف مقصودها، غير أنّ هذا التطبيق ليس مباشر في ارتباط اسم بعض السور بمقصودها، وإنما يلتمس منه وجه المناسبة بينهما بعد أن يتوصل إليه.

ومن أسماء السور ما يخدم موضوعها إذا كان محوراً واحداً، فيتتابع سيرها وتواليها، فتؤدي غرضها تباعاً، أو ضمن حزمة أو مجموعة من الآيات

---

(١) ينظر: نظم الدرر: ١/١٨، ١٩.

(٢) ينظر: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل: ١/١٧٤، ١٧٥.

يتم الانتقال بها من جزئية إلى أخرى إلى نهاية السورة، حتى يكتمل موضوع السورة، مثل: الشمس، الليل، الضحى، الانشراح وغيرها.

ومن ذلك سورة الكهف، فإنّ اسمها توقيفي من حديث الرسول ﷺ: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصم من الدجال»[1].

فاسم السورة مرتبط بقصة أهل الكهف، وأنّ هذه السورة انفردت بأربع قصص لم تتكرر في سورة أخرى وهي: قصة أهل الكهف وقصة صاحب الجنتين، وقصة موسى عليه السلام مع الخضر، وقصة ذي القرنين، وهذه القصص الأربعة تشترك في بيان أسباب الفتن الكبرى في الحياة الدنيا، والتي هي مقصود السورة ومحورها: فتنة السلطان، والمال، والعلم، والأسباب المادية[2]، وإنّ العصمة من جميع الفتن التي ورد ذكرها في سورة الكهف هي قراءة الآيات العشرة الأولى من سورة الكهف بحسب قول النبي ﷺ، وفي مقدمتها فتنة المسيح الدجال[3].

٥- محاولة اقتناص الروابط المعنوية والمصاحبات اللغوية والقرائن الداخلية والخارجية، والتي تصل بين المعاني الجزئية للخلوص إلى أهم القضايا التي تعالجها السورة؛ لأنّ السياق المبهم يفسره غيره، وهذا نوع آخر من سياقات النص القرآني.

فقد يفسّر عنصر من عناصر النسق في السياق ما بدلالة سياق آخر يتلوه بعد قليل في نص آخر؛ لأنّ السياق مخصص وهو الذي يوجه المعنى بأي نوع

---

(١) صحيح مسلم: ٦/٧٧ برقم ١٨٣٣.

(٢) ينظر: وحدة النسق في السورة القرآنية: ٢٠٤.

(٣) ينظر: معترك الأقران: ١/٩٩.

من أنواعه (اللغوية، والثقافية، والحالية (المقالية)، وسياق الموقف) أي: السياق الداخلي والخارجي المحيط بالنص أو السورة القرآنية.

فيمكن الاستفادة من هذه النقطة في الكشف عن دلالة سياق بسياق آخر يحدد معناه، أو يحمله عدة احتمالات أي: يحرره، فتتعاون عناصر النسق فيه لتؤدي دلالات بدلالات بعضها، لترتبط في المحور الأساسي لنسق السورة العام.

وقد ورد بالاستقراء إلى أنّ الحكم بدلالة واحدة للمفردة داخل السياق على وجه القطع غير متحقق باطراد إلاّ في آيات معدودة، والحكمة فيه أنّ الله سبحانه أراد أن يتفكّر عباده في كتابه فلم يأمر نبيّه ﷺ بالتنصيص على المراد في جميع آياته؛ لأنّ نظم القرآن الكريم مبني على وفرة الإفادة وتعدد الدلالة، فمن هذا يحمل اللفظ داخل السياق أكثر من دلالة قد لا تتعيّن واحدة منها على وجه القطع بأنها هي المقصودة، بل إنّ الدلالة الظنية ظاهرة فيها، لذا فإنّ بعض المفسرين تنبّهوا لذلك واستوعبوا هذه الظاهرة فجاءت أقوالهم متعددة الاحتمالات دون ترجيح أحياناً[1].

فمن هذا النوع قوله تعالى: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ ...﴾[2]، فقد أبهم فهم هذه الآية، فقال فيها ابن عباس رضي الله عنه: «إنّما أنزلت هذه الآية في أصل الكتاب»[3] فذكر الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ

(١) ينظر: التحرير والتنوير: ١/١٠٠؛ وينظر: النسق القرآني: ٣٨٤، ٣٨٥.

(٢) سورة آل عمران: ١٨٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ٢/١٤١.

بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[1].

وهذه العلاقات تبدو فعالياتها داخل الجملة والآية والسياق، فهي وسائط ومناسبات توثق جزئيات النص مع بعضه وفقاً لمقتضيات النظم ووفاء بالدلالة السياقية التي يستمد النص معظم معطياته منها، أو في ضوئها في حالات مختلفة[2].

وقد تكون بعض الروابط المعنوية والعلاقات استطراداً دعا إليه الموقف أو طرأ جديد اقتضى الإشارة إليه، أو يكون من قبيل التمثيل الواقع يُضرب له مثلاً أو يستشهد بحادثة، ففي قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾[3]، فإنّ وجه الاتصال بينها هي صلة بيت المقدس بماضي الرسالات وفي أولها رسالة موسى عليه السلام، وهي حلقة في سلسلة النبوات بدءاً من نوح عليه السلام وانتهاءً بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وأنّ طرائق الكشف هذه عن وحدة نسق السورة ومحوره الأساس أمراً اجتهاديّاً لا يمكن القطع به، ولا خير في الاختلاف فيه، فهو مظهر من مظاهر الإعجاز القرآني ومظهر من ثرائه، وكرم عطاءه إلى آخر الزمان[4].

---

(١) سورة آل عمران: ١٨٧.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز: ٤٩، ٥١؛ وينظر: النسق القرآني: ٢٩٩.

(٣) سورة الإسراء: ١-٣.

(٤) ينظر: وحدة النسق في السورة القرآنية: ٢٠٥.

وهذا المستوى في القرآن الكريم يمنح صفة الإعجاز في الأداء، لأنّه المعنى الذي يحويه النص[١].

وأنّ بعض المعاني تجمعها علائق دلالية في حين تغيب هذه العلائق بين معانٍ أخرى حسب ما يقتضيه السياق، حيث يفضي إلى وجود علائق دلالية وفنية واجتماعية بين المعاني والسياق، أي إنّه هناك تفاعل بين معاني المادة اللغوية والسياق، والدلالة السياقية هي الدلالة التي يعينها السياق اللغوي فملازمة لفظة ما لسياق دلالي معين هو لون من ألوان الدقة اللغوية التي نسعى لتوظيفها في مجالات التعبير المختلفة[٢].

ومثال هذا المستوى قوله تعالى: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾[٣]، فمن سياق النص نجد إنّه يدل على إنّه الذليل الحقير[٤]، لذا فالمستوى الدلالي يعتمد على النظام الأسلوبي الذي يعتمد على أنظمة اللغة جميعها في تعيين المعنى المراد[٥].

(١) ينظر: أرشيف ملتقى أهل التفسير: ٩٩٧٧.

(٢) ينظر: ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم: ٣٥، ١٣٦، ١٣٧.

(٣) سورة الدخان: ٤٩.

(٤) ظواهر أسلوبية في القرآن الكريم: ١٣٦.

(٥) ينظر: نظرية النظام اللغوي: ٢٥.